

الفصل الثامن

أقبل عبد الرحمن بعد أيام وفي نفسه قلق لم يبلغ الجزع، فلم يكن علي قد أنبأه بأكثر من أن ابنته مريضة، ومن أن من الخير أن يراها وأن تراها أمها، وكان عبد الرحمن رجلاً جلدًا صبورًا عظيم الاحتمال، قد امتحنته الأيام في ابنه جميعًا، فلم يتخلع قلبه، ولم يخرج من وقاره المألوف، وإنما بلا مرارة الحزن إلى أقصاها واصطلى نار الألم إلى أشدها، وهو ثابت لا يضطرب، وقور لا تزدهيه الخطوب، يرحمه الناس ولكنهم يُعجبون به ويعجبون منه. وهو ماضٍ في حياته، محتمل لأثقالها، ثابت لعواصفها، يشهد الصلوات الخمس في المسجد، ويتلو ورد السحر في آخر الليل، ويختلف إلى متجره وجه النهار وآخره، فيعمل ويرى أعوانه يعملون، قليل الكلام كثير الصمت، لا يغفل قلبه عن ذكر الله، ولا تنسى نفسه أن تستخرج من آلامه مواعظ وعبرًا، وهو يرحم امرأته ويشفق عليها، ويحيطها بشيء من عطف يوشك أن يكون قسوة؛ فهو لا يحب البكاء كما أنه لم يكن يحب الفرح؛ وإنما يريد لامراته أن تكون مثله هادئة، رزينة كاظمة للغيط، صابرة على الخطب مُسلمة أمرها إلى الله، قابلة قضاءه في رضا، منتظرة قضاءه في ثقة، فلما جاءه النبأ بأن ابنته مريضة، وبأن الخير أن يراها وأن تراها أمها، لم يُظهر امرأته على شيء، وإنما زعم لها أنه مسافر إلى الأقاليم في بعض ما كان يسافر له من التجارة.

فلما وصل إلى المدينة ولقي عليًا وخالداً، قال لهما في صوته الهادئ وعلى ثغره ابتسامته المطمئنة: لم أخبر أم صالح بشيء ولم أكلفها مشقة السفر، فإن تكن نفيسة قادرة على الرحلة إلى القاهرة، فالخير أن تمرّض هناك وأن ترى أمها في دارها، وإن تكن غير قادرة على الرحلة مرصّناها هنا حتى يكون لها حظ من بُرء، فقتّم شفاءها في القاهرة. كذلك قدّرت والله تقديره، وهو يقضي فينا بما يشاء. ولم يرد مع ذلك أن يستريح ولا أن يشرب القهوة، وإنما صمم في هدوء على أن يرى ابنته قبل كل شيء، قال علي: سترها